

فصل في معنى «الحيّ القيوم»

oboeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من هداه الله فلا مضلَّ له، ومن يُضِلَّ فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا، وعلى آله وصحبه وسلم.

فصل

في معنى اسمه «الحي القيوم»

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١).
وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٢). وقال تعالى:
﴿وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾^(٣). وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره «الحي القيوم»^(٤). والقيَامُ فَيَعَالُ، والقيُومُ فَيَعُولُ، وفيعال من جنس فعَّال، وفيعول من جنس فعول، لأن الحرف المضعف يعاقب الحرف المعتل، كقولهم تَقَضَّى البازِي وتَقَضَّضَ.

(١) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ١ - ٢.

(٣) سورة طه: ١١١.

(٤) كما في «صحيح» البخاري (في أول تفسير سورة نوح) و«المحرر الوجيز» (٢/٢٧٤) و«زاد المسير» (١/٣٠٢) والقرطبي (٣/٢٧٢).

والقِيُوم والقِيَام من قام يقوم، فهو معتلٌّ، فإن عينه واو، فلهذا قيل فيه: فيَعَال وِفْيَعُول، ولو لم يكن في ألفاظه حرفٌ معتلٌ لا ياءٌ ولا واوٌ لقليل: فَعَال، كما قيل «حَمَاد» و«سِتَار»، وفُعُول كما قيل «سُبُوح» و«قُدُوس»، والغالب فَعُول بالفتح، وهو القياس في شرح «قُدُوس»، ولكن جاءت دلالة اللفظ على غير القياس بالضم سبوح و قدوس وذو الروح.

وقد تبين أن قراءة الجمهور «القِيُوم» أتمُّ معنى من قراءة «القِيَام»، فإن فَعُول وِفْيَعُول أبلغ من فَعَال وِفْيَعَال، لأن الواو أقوى من الألف، والضم أقوى من الفتح، وهذا عينه مضمومة، والمعتلُّ منه واو، فهو أبلغ مما عينه مفتوحة والمعتلُّ منه ألف. ودائمًا في لغة العرب الضمُّ والواو أقوى من الياء والكسرة، والياء والكسرة أقوى من الألف والفتحة، وهكذا هو في النطق، وكذلك في سائر الحركات، فإن المتحرك إلى أسفل كحركة الماء أثقل من المتحرك إلى فوق كالريح والهواء، والمتحرك على الوسط هو الفلك أقوى منهما.

ولهذا كان الرفع لما هو عمدة في الكلام، وهو: الفاعلُ، والمفعولُ القائمُ مقامه، والمبتدأ، والخبر. وكان النصب لما هو فضلة في الكلام، كالمفاعيل وغيرها: المفعول المطلق والمفعول به وله ومعه، والحال والتمييز. وكان الجرُّ لما هو متوسطٌ بين العمدة والفضلة، وهو المضاف إليه، فإنه تضاف إليه العمدة تارةً والفضلة تارةً، فتقول: قام غلامٌ زيد، وأكرمتُ غلامَ زيد.

ولما كانت «كان» وأحواتها أفعالاً تُستعملُ تارةً تامةً مكتفيةً بالفاعل، وتارةً ناقصةً فتحتاج إلى منصوب، كان الرفع فيها مقدمًا، فإنه العمدة، ولا بدُّ منه في النوعين التامة والناقصة.

وأما «إن» وأخواتها فإنها تختصّ بالجمل الاسمية، لكن أشبهت الأفعال، فصار لها منصوبٌ ومرفوعٌ كالأفعال، ونقصت درجتها عن درجة الأفعال، فقدّم منصوبها لذلك، ولأنه أخفّ، ولأن الخبر يكون غير اسم، مثل الجار والمجرور به، فلا يظهر فيه النصب، بل قد يقدّم على الاسم.

وأما باب «ظننت» وأخواتها فإنها أفعالٌ، تُستعمل تارةً مع الاقتصار على الفاعل، وتارةً يُذكر معها المفعولات، ولكن تعلق على العمل إذا تصدر ماله صدر الكلام، فلا يعمل ما قبله فيما بعده، مثل لام الابتداء وحروف الاستفهام، وما الناقصة، كقوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَخْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾^(٢). وتارةً تُلغى عن العمل إذا قدم المفعولات أو وسط الفعل بينهما، كقولك: «زيد منطلق ظننت»، والإلغاء ههنا أحسن، وقولك «زيدٌ ظننتُ منطلقٌ».

وكان الفرق بين باب «ظننتُ» وباب «كسوت» أن المفعولين ههنا المبتدأ والخبر، بخلاف باب كسا، فإن الثاني غير الأول، ولهذا يجوز في باب كسا الاقتصار على أحد المفعولين، بخلاف باب ظننتُ، فإنه لا يجوز ذلك فيه، كما لا يجوز الاقتصار على المبتدأ دون الخبر.

وقد تبين أن المبتدأ وخبره مع نواسخه قد استوعبت الأقسام الممكنة، فإنهما إما مرفوعان، كما إذا تجرّدا عن العوامل اللفظية؛ وإما منصوبان، وهو باب ظننتُ، إذ الأول مرفوع، وهو باب «كان»؛

(١) سورة الكهف: ١٢.

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

أو الأول منصوب وهو باب «إن». وتبين أن الرفع لما هو عمدة،
والنصب لما هو فضلة.

وكذلك الضم والفتح والكسر التي هي حركاتٌ لنفس الكلمة،
وتسمى مناسبة إذا كانت في الآخر لم (١) عامل للإعراب،
كقولك: خَرَجَ وخُرِجَ، وكَرِهَ وكُرِهَ، والغَسَلَ والغُسِلَ ونحو ذلك،
فالخَرَجَ والكَرِهَ والغَسَلَ مصدر الفعل الثلاثي المتعدي، وهو قياس،
تقول: ضَرَبَهُ ضَرْبًا، وأكله أَكْلًا ونحو ذلك، وأما الخُرِجَ والكُرِهَ فهو
نفس الشيء المكروه والمخروج، والعَيْنُ أقوى من الفعل، والغُسِلَ
بالضم اسم الاغتسال، واغتسال الإنسان لنفسه أكمل من غَسَلِهِ لغيره،
تقول في هذا: غُسِلَ الجمعة وغُسِلَ الجنابة، لأن المراد الاغتسال؛
وتقول في ذلك: غَسَلَ الميت وغَسَلَ الثوب، لأن المصدر غَسَلَ
الإنسان لغيره. هذا هو اللغة المشهورة سماعًا وقياسًا، وما نُقِلَ غير
ذلك فإما خطأ وإما شاذ.

فتبيّن أن «الْقَيُّومَ» أبلغُ من «الْقِيَّامَ»، ذلك يفيد قيامه بنفسه باتفاق
المفسرين وأهل اللغة، وهو معلوم بالضرورة. وهل يُفيد إقامته لغيره
وقيامه عليه؟ فيه قولان. وهو يفيد دوامَ قيامه وكمالَ قيامه، لما فيه
من المبالغة لقيوم وقيام. ولهذا قال غير واحدٍ من السلف: القيوم
الذي لا يزول، كما قال ابن أبي حاتم^(٢): حدثنا علي بن الحسين نا
عيسى الصائغ ببغداد نا سعد بن عبدالعزيز عن سفيان بن حسين عن
الحسن رضي الله عنه: القيوم الذي لا زوال له.

(١) هنا بياض في الأصل بقدر كلمة.

(٢) «تفسيره» (٤٨٧/٢).

وقد ظن طائفة من النفاة - كبشر المريسي وغيره - أن مرادهم بذلك أن لا تقوم به الأفعال الاختيارية ولا يتحرك ونحو ذلك، وردّ عليهم عثمان بن سعيد الدارمي وغيره، وبيّنوا خطأه فيما فهمه من ذلك عمن نقل ذلك عنه من السلف، وهو إنما نقله عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهذا الإسناد وحده مما لا يعتمد عليه أهل الحديث، فذكروا ضعفه^(١)، ثمّ ذكروا عدم دلالتّه على ما طلبه. ولكن قد رُوِيَ هذا بغير هذا الإسناد، فبينوا خطأ من فهم ذلك المعنى، وأن المراد بقولهم «لا يزول»: أنه دائمٌ باقٍ لا ينقص عن كماله فضلاً عن أن يفنى أو يعدم، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِيَرْزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾^(٢). وفيه قراءتان^(٣): أكثر القراء يقرءون «لِتَرْزُولَ»، فيدلُّ على النفي، أي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وقرأ بعضهم «لِتَرْزُولَ» بالرفع على الإثبات، أي: إن كان مكرهم تزول، هذا تقدير البصريين. والكوفيون يقدرون: ما كان مكرهم ألاّ تزول. وكلا القراءتين لهما معنى صحيح، كما هو مبسوط في غير هذا الموضع^(٤).

وقوله تعالى «تزول منه الجبال» مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ

(١) انظر «الإتقان» للسيوطي (٤/٢٣٩)، و«تدريب الراوي» (١/١٨١).

(٢) سورة إبراهيم: ٤٤ - ٤٦.

(٣) انظر: «زاد المسير» (٤/٣٧٤) والقرطبي (٩/٣٨١).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى»: (١٧/٣٨١ - ٣٨٢).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولًا وَلَئِن زَالَاَ إِذْ أَمْسَكْتَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ . ومنه قول لبيد^(٢) :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

وقد قال له عثمان^(٣) بن مظعون رضي الله عنه وهو ينشد:
«صدقت». ثم قال :

وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ

فقال له: «كذبت، إن نعيم الجنة لا يزول»^(٤).

وليس المراد بقوله ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾^(٤١) وبقوله تعالى ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾^(٤٦) و﴿ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ هو الحركة، فإنهم كانوا يتحركون، والكواكب متحركة، بل الأفلاك التي فيها الكواكب متحركة. و«زال» يُستعمل لازماً ويُستعمل ناقصاً من أخوات «كان»، فيقال في اللازم: زال يزول زوالاً، كما في قوله تعالى ﴿ أَنْ تَزُولَا ﴾ و﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾^(٤٤) و﴿ إِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾^(٤٦). ومنه: زالت الشمسُ تزولُ زوالاً. وليس المراد بزوالها حركتها، فإنها لا تزال متحركة في رأي العين منذ تطلع إلى أن تغرب. ولا يقال إنها زالت إلا إذا انحطت عن غاية الارتفاع، فإذا ارتفعت على رعوس الناس كان غاية ارتفاعها، وهو قَبْلَ الزوال، ثم إذا

(١) سورة فاطر: ٤١.

(٢) ديوانه: ٢٥٦.

(٣) في الأصل «عثمان»، وهو خطأ، فقد كان المنشد لبيداً، وعلق عليه عثمان.

(٤) الخبر في «سيرة» ابن إسحاق (ص ١٥٨ - ١٥٩)، و«سيرة» ابن هشام (١/٣٧٠)

و«البداية والنهاية» (٤/٢٢٧ - ٢٢٨).

انحطت بعد هذا وانحطت ومالت قيل: زالت، ويقال لها قبل الزوال: قد قام قائم الظهيرة، فَيُعَبَّرُ عن هذا بلفظ القيام، وعن آخرها يُلْفَظُ في الانحطاط بلفظ الزوال، كما يُعَبَّرُ عنه بلفظ الاستواء، فيقال: استوت الشمس، وعند الزوال بالميل فيقال مالت الشمس؛ فكأن لفظ الزوال يَدُلُّ على النقص بعد الكمال، والانخفاض بعد الارتفاع.

والذين أقسموا من قبل «مالهم من زوال» لم يريدوا أنهم لا يموتون، فإن هذا لا يقوله أحد من العقلاء، ولكن ظنوا دوام ما هم فيه من الملك والمال، وأن ذلك لا يزول عنهم. وهذا باطل. ولهذا قال النبي ﷺ لما سُبِّتْ نَاقَتُهُ العَضْبَاءُ وكانت لا تُسْبَقُ، فجاء أعرابي على قَعُودٍ له فسَبَّحَهَا، فقال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُرْفَعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ»^(١). فكلما ارتفع شيء من الدنيا فإن الله تعالى يضعه، وذلك من زواله.

والزائل الذي لم يكتسب به ما يدوم نفعه يُسَمَّى باطلاً، فالموتُ حقٌّ والحياة باطلٌ، فإن الباطل ضدُّ الحق، والحقُّ يقال على الموجود، فيكون الباطلُ هو المعدوم. ويقال أيضاً على ما ينفع ويُنْفَى نفعه، فيكون الباطلُ اسماً لما لا ينفع، أو لما لا يدوم نفعه. ومنه قول النبي ﷺ: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُوُ بِهِ الرَّجُلُ باطلاً منه إلا رميه بقوسه أو تأديبه فرسه أو ملاعبته امرأته، فإنهن الحق». رواه أبو داود وغيره^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٢) عن أنس.

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٤٤، ١٤٨) والدارمي (٢٤١٠) والترمذي (١٦٣٧) وابن ماجه (٢٨١١) من طريق عبدالله بن زيد الأزرق عن عقبة بن عامر. أما أبو داود (٢٥١٣) فأخرجه من طريق خالد بن زيد الجهني عن عقبة بلفظ مختلف.

ومنه قوله ﷺ: «إن هذا الرجل لا يُحِبُّ الباطل»^(١)، وهو ما لا يَنفَعُ النفع الباقي، وهو النافع في الآخرة، فكلُّ ما لا يَنفَعُ في الآخرة فهو باطل، وإن كان لذةً حاضرةً، فإنها تزول وتُعدُّ بلا نفعٍ يَبقى، فهي باطل بهذا الاعتبار.

وقال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ، هُوَ الْبَاطِلُ﴾^(٢)، فهذا باطل من الجهتين: من جهة أن استحقاق الإلهية معدوم، فهو لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ؛ ومن جهة أن عبادته لا تنفع وإن كانت موجودة^(٣) في الحياة الدنيا، فيوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً. ومن هذا قوله ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر لبيد:

ألا كلَّ شيء ما خلا الله باطل^(٤)

قال الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾^(٦) إلى قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾^(٦). والثابت ضدُّ الزائل، فالباطل الزائل الذي لا يَنفَعُ في الآخرة هو الذي شرع فيه الزهد، فالزهد مشروع في كل ما لا يَنفَعُ في الآخرة، والورع مشروع في كل ما قد يَضُرُّ في

(١) أخرجه أحمد (٤٣٥/٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٤٢) عن الأسود بن سريع.

(٢) سورة لقمان: ٣٠.

(٣) في الأصل: «كان مودة»!

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨٩) ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة.

(٥) سورة الفرقان: ٢٣.

(٦) سورة إبراهيم: ٢٤ - ٢٧.

الآخرة. فالورع عن المحرمات واجبٌ، لأنها سبب الضرر، والورع عن الشبهات حسن، لأنه قد يكون في ذلك محرّم، وقد يدعو الوقوع فيها إلى الوقوع في الحرام، كما في الصحيحين^(١) عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أمور مشتهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن ترك الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه. ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب».

فقد بيّن النبي ﷺ أنّ من ترك الشبهات التي لا يعلم كثير من الناس أحلالاً هي أم حرام، استبرأ لعرضه ودينه، وإن وقع فيها وقع في الحرام، كالراعي حول الحمى يوشك أن يرتع، ويقرب أن يواقعه. وبيّن أنّ حمى الله تعالى محارمه التي حرّمها، وفي هذا ما دلّ على أن الشبهات لا تخفى على جميع الناس، بل كسبهم من غير الحلال منها من الحرام. ومن تبين له ذلك فأخذ الحلال وترك الحرام لم يكن ممن وقع في الشبهات، وإنما الذي يقع فيها من لم يتبين له أحلالٌ هي أم حرام. وفيه ما دلّ على أن شريعته في ترك الشبهات يتضمن سدّ الذريعة، فإنها داعية إلى الحرام، وما كان ذريعة يُترك، إلا إذا كان مصلحةً فعله راجح.

مثال ذلك أن يشتبه عليه الحلال بالحرام، فلا يقطع بواحدٍ

(١) البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

منهما، فهذا يُرَغَّبُ في الترك، لأنه شبهة، إلا أن يكون إذا ترك ذلك تضمن ترك واجبٍ محقق أو فعلٍ محرّمٍ محقق، فلا يكون حينئذ مرغّباً في ترك الشبهة، بل يكون مأموراً بفعلها، لأنه إذا فعلها لم يعلم أنه يَأْثَمُ، وإذا تركها وتضمن ذلك ترك واجبٍ أو فعلٍ محرّمٍ كان إثماً.

والورع المشروع هو ما قاله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للحسن رضي الله عنه: «دَعَّ ما يَرِيك إلى ما لا يَرِيك»^(١)، وهنا إذا تركه لم يدعه إلى ما لا يريبه، بل إلى ما هو يريبه قطعاً، وذلك يظن أنه قد يريبه.

ومثل هذه المسألة المشهورة عن الإمام أحمد رضي الله عنه، وقد ذكرها أبو طالب وأبو حامد وغيرهما في كتاب الورع للمروزي^(٢) وغيره، أنه سُئِلَ عَمَّن مات أبوه وعليه دين، وله مالٌ فيه شبهة، وهو يتورع عن قبض ذلك المال، أَيْدَعُ ذِمَّةَ أَبِيهِ مرتَهنةً؟ فبيّن ذلك الإمام أحمد رضي الله عنه أن قضاء دين الميت من المال الذي خلفه واجب، وأن الوارث عليه أن يفعل ذلك، أو يُمَكِّنُ الغرماء من قبضه، وإن لم يمكن قضاؤه إلا بفعل الوارث تعيّن عليه ذلك، فإنه واجبٌ على الكفاية، وهو متعين عليه إذ لم يقم من غيره. وأما قبضه الشبهة فليس محرماً، بل ورعٌ مستحبٌ، فكيف يفعل مستحباً بترك واجب؟.

وهكذا من عليه ديون وله مالٌ يقضي به الديون، وفيه شبهة، فقضاء الديون واجب، والورع بقضاء الديون واجب، وليس ترك الشبهة واجباً. ولو قُدِّرَ أن في ملك الشبهة ظلم قليل، فهو أخفٌ من

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠/١) والدارمي (٢٥٣٥) والترمذي (٢٥١٨) والنسائي

(٣٢٧/٨) من طريق أبي الحوراء السعدي عن الحسن.

(٢) ص ٨٣.

ظلم أرباب الديون بمنع حقوقهم. مثل أن يكون له ألف درهم فيها مئةٌ لغيره مثلاً، وعليه ألف درهم، فإذا لم يوفِ الغرماءَ حقوقهم ظَلَمَهُم بألف درهم، وذاك أعظم إثمًا من ظلم مئة، هذا إذا قُدِّرَ أنه لا يعرف قدر ما في ماله من الظلم، وإلا فإذا عرف قَدْرَ ذلك فإنه يُخْرِج مقدارَ الحرام، فيعطيه لمستحقِّه إن عرفه، وإلا تعرف به وصرفه في مصالح المسلمين عنه إذا لم يعرفه، كما نُقِلَ عن السلف من الصحابة والتابعين، وهو مذهب أكثر الفقهاء، كمالك وأبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، أعني صرفه إذا جهل صاحبه إلى مصرف مال الله تعالى ورسوله ﷺ، وهو صرفه في كل ما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ.

وليس هذا كاللُّقْطَةِ التي له أن يملكها، فإن اللقطة عَرَفَهَا حولاً وأخذها بفعله، فإذا لم يجد صاحبها صارت بمنزلة ما يملكه من المباحات بفعله ما دام صاحبها مجهولاً، وله أن يتصدَّقَ بها عنه، فإن عرف صاحب المال في الموضعين فالأمر إليه، إن شاء أجاز ما فعله من تصرفه لنفسه أو صدقة بها عنه، وإن شاء ردَّ ذلك وطلبَ بدلَ ماله، كما قال الصحابة رضي الله عنهم مثل ذلك في المال، وفي امرأة المفقود أيضاً، قالوا: يُخَيَّرُ الزوجُ القادمُ بين المرأة وبين مهرها، وهو مبني على هذا، فإنه لما انقطع خبره جاز التصرف في بُضْعِ امرأته، كما جاز التصرف في المال الملتقط الذي جهل صاحبه، وفي غيره، ثم ظهر خبره، صارَ حينئذٍ مخيَّراً، وكان ذلك التصرف الأول الذي كان مع عدم العلم به جائزاً باطنًا وظاهرًا، كمال اللقطة، فإنه بعد حلول التعريف يملك الملتقط باطنًا وظاهرًا، وكذلك يملكه من تصدق عليه، فإذا جاء المالك وطلبه عادَ إليه ملكًا جديدًا.

وأما الشبهة إذا اجتنبها أوقعته فيما يتردد بين الكراهة والتحريم قطعاً، فهذا مما يتنازع الفقهاء فيه، مثل إذا شك من الطلاق الثلاث فمن الفقهاء من يستحب له اجتنابها، بل يستحبون له إيقاع الطلاق يقيناً لتبأح لغيره بلاشك، مثل أن يقول: إن لم يكن وقع بك فقد أوقعته بك. ومنهم من يستحب له إمساكها، ويرى ذلك خيراً^(١) من مفارقتها ومن إيقاع الطلاق عليها، فإنه إذا ملكها لم يأثم، فإن الأصل عدم الطلاق، وإمساكها جائز لا إثم فيه، وأما الطلاق فهو مكروه أو محرّم، فمن قطع بتحريمه فإنه يقطع بأنه ليس له أن يطلقها لأجل الشك، ومن قال مكروه فقد يتردد اجتهاده لكون كراهة الطلاق أشدّ أم كراهة إمساكها مع الشك. وأما من تردّد هل الطلاق محرّم أو مكروه فإمساكها أولى عنده، لأنه هناك متردد بين حلال وحرام، وهنا متردد بين حرام ومكروه. وأما من قال: الطلاق مباح لا كراهة فيه، فإيقاعه عنده أولى من إمساكها مع الشك. وقد بسطنا هذه المسائل في غير هذا الموضوع. والصواب أن الطلاق في الأصل محظور، وإنما أبيح للحاجة.

والمقصود هنا أن مالا يُستعان به على النفع الدائم فهو نفع يتعقبه، ومنه يُسمّى العبث واللعب باطلاً، وإن كان العايب اللاعب فيه منفعته زائلة، لما فيه من اللذة الحاضرة، لكن هو باطل إذا لم يُستعان به على الحق الذي يدوم نفعه. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبِكُمْ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ

(١) في الأصل: «خير».

(٢) سورة ص: ٢٧.

(٣) سورة الدخان: ٣٨.

عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾^(١). فإن الدنيا وإن كان فيها نوع لذة ومنفعة حاضرة فتلك زائلة منقطعة، فهي باطلة، والفعل لمثل ذلك من باب العبث واللعب، والله تبارك وتعالى منزّه عن ذلك، إنما خلق هذا الذي ينقص ويزول لما يبقى ويدوم، والذي يبقى ويدوم هو الحق، والذي يزول وينقص قد فسد وهلك. ولهذا قيل في قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢): كلُّ عمل باطلٌ إلا ما أريد به وجهه. وفي الدعاء المأثور: «أشهد أن كلَّ معبود من لدن عرشك إلى قرار أرضك باطلٌ إلا وجهك الكريم». وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾^(٣). فهو سبحانه وتعالى الباقي الدائم، وما كان به وله فهو الباقي الدائم، وما لم يكن له فهو باطلٌ فاسدٌ هالكٌ، لا يبقى ولا يدوم.

قالوا لمالك بن أنس رحمه الله تعالى: إن فلاناً عمِلَ موطاً مثلَ موطأك، فقال: وطأوا ووطأنا، وما كان لله عزَّ وجلَّ فهو يبقى^(٤).

ولما استقر في الفطر أن كل عمل لا يبقى نفعه فهو عبثٌ ولعبٌ وباطلٌ، صار كلُّ من الناس يُسمَّى مالا يبقى نفعه بالنسبة إلى ما يبقى عبثاً وباطلاً ولعباً وباطلاً، فالصبيان إذا لعبوا سمى الرجال العقلاء فعلهم لعباً وباطلاً وعبثاً، وإن كان للصبيان فيه لذة ومنفعة حاضرة، لكنها لا تدوم وتبقى، بل إذا فرغوا من اللعب احتاجوا إلى أمورٍ لا

(١) سورة المؤمنين: ١١٥.

(٢) سورة القصص: ٨٨.

(٣) سورة الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

(٤) انظر «ترتيب المدارك» (١/٩٥) ط. بيروت، و«تزيين الممالك» (ص ٤٤).

تحصل باللعب. فكان من اشتغل بما يحصل له قوتًا وكسبًا ونحو ذلك من المقاصد عندهم صاحب جدّ وحقّ، ليس بصاحب لعب وباطل، فإن هذا يبقى ويدوم وينفع أعظم من ذلك؛ ومن كان عنده أن الجاه والرئاسة والسلطان والملك أنفع وأبقى من المال، كان عنده من اشتغل بتحصيل المال وأعرض عن ذلك صاحب لعب وباطل بالنسبة إلى مطلوبه ومقصوده، فإن المال لا يتنفع به صاحبه إلا إذا أخرجته وأنفقته، فمفئدته في إذهابه، بخلاف الجاه، فإنه كلما قوي وحصل كان الانتفاع به أكثر، وصاحبه يمكنه أن يحصل به من المال ما لا يمكن صاحب المال أن يحصل به من الجاه، فلهذا كان هذا أعقل وأكيس وأبعد عن اللعب والباطل من ذلك.

ثم إن صاحب الحق الذي قد علم أن الدنيا لا تدوم، فلا يدوم للإنسان فيها لا جاه ولا مال، بل هذا وهذا يقول يوم القيامة: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾﴾ (١). وقد روى الترمذي وغيره (٢) عن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». [قال] الترمذي: حديث حسن صحيح. بين ﷺ أن حرص المرء على المال والشرف والرئاسة يفسد الدين مثل أو أبلغ من إفساد الذئبين الجائعين إذا أرسلا في زريبة غنم. وهذا الحرص صفة تقوم بالنفس، والدين هو الذي يبقى ويدوم نفعه بعد الموت، فلو قدر أن الإنسان طلب من

(١) سورة الحاقة: ٢٨ - ٢٩.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٦) وأحمد (٤٥٦/٣، ٤٦٠) والدارمي (٢٧٣٣). وللحافظ ابن رجب شرح عليه مطبوع. وانظر كلام المؤلف عليه في «مجموع الفتاوى» (١٠٧/١١ - ١٠٨، ١٤٢/٢٠ - ١٤٤، ٣٩١/٢٨ - ٣٩٢).

المال والشرف مالا ينفعه بعد الموت، لكان صاحب باطلٍ ولعب وعبث، فكيف إذا طلب ما هو صار له بعد الموت يُفسد ما ينفعه، كإفساد الذئبين الجائعين لزريرة الغنم. ولهذا إنما جعل ذلك الحرص على المال والشرف، والحرص يُوجب الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أصله شدة الحرص.

وفي الصحيحين^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ الشُّحُّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ، أَمْرَهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا، وَأَمْرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا».

ورويَ عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يَطوف وهو يقول: «رَبِّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي، رَبِّ قِنِي شُحَّ نَفْسِي»، فقيل له: ما أكثرَ ما تدعو بذلك! فقال: إذا وُقِيتُ الشُّحَّ وُقِيتُ البخلَ والظلمَ والقطيعة^(٢).

وذكر رجلٌ لابن مسعود رضي الله عنه أنه يكره إخراجَ الماءِ، أفشحيحٌ هو؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ذلك البخيل، وبئس الشيء البخل، ولكن الشُّحَّ أن تُحِبَّ أخذَ مالِ أخيك^(٣).

ولهذا الشُّحُّ كان أعظمَ من البخل، فإن البخيلَ يَبْخُلُ بما عنده، والشُّحُّ هو شدةُ الحرص، فهو عمل على الحسد حتى يكره أن يُعْطِيَ اللهُ تعالى غيره من فضله، وعمل على الظلم والقطيعة حتى يأخذ مالَ غيره بغير حق. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً

(١) لم أجده في الصحيحين، وقد أخرجه أحمد (١٥٩/٢)، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، والدارمي (٢٥١٩) وأبو داود (١٦٩٨) عن عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) أخرجه الطبري (٢٩/٢٨) وغيره، انظر «الدر المنثور» (١٠٨/٨).
(٣) أخرجه الطبري (٢٩/٢٨) وغيره، انظر «الدر المنثور» (١٠٧/٨).

مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾^(١). فمدح الأنصار بأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتي المهاجرون، أي لا يجدون في أنفسهم طلباً لما أنعمه الله عليهم، بل نفوسهم غنية، وقد قال النبي ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس»^(٢). والحاسد والحريص أنفسهم فقيرة محتاجة لا غنى فيها، فالحاسد شر من البخيل، والمحسن إلى الناس أفضل من المستغني الذي لا يحسن. ولهذا جاء في الحديث^(٣): «الصدقة تُطْفِئُ الخِطِيئَةَ كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ، والحسدُ يأْكُلُ الحسناتِ كما تأْكُلُ النارُ الحطبَ».

والحسدُ يكون على المال والجاه جميعاً، كما قد يكون على الدين والعلم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَدَكَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴿٥٥﴾^(٥). وإذا أحبب أن يحصل له من الخير الذي حباه الله تعالى مثلما حصل لغيره من غير زوال تلك النعمة عنه، فهذا غبطة، ويُسمى حسداً لكنه حسن. كما في الصحيحين^(٦) عن النبي ﷺ أنه

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠) عن أنس. وفي الباب عن معاذ بن جبل وجابر وغيرهما.

(٤) سورة النساء: ٥٤.

(٥) سورة البقرة: ١٠٩.

(٦) البخاري (٧١٤١) ومسلم (٨١٦) عن ابن مسعود.

قال: «لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ: رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، ورجل آتاه الله مالاً فسَلَّطه على هلكته في الحق». فإن هذا وهذا مما يحبها الله ورسوله ﷺ، وسيجازي صاحبهما في الآخرة، فإذا أحب الرجل أن يكون له مثل ما لغيره من ذلك فهذا حسن، وهو من المنافسة التي رُغِبَ فيها بقوله تعالى وتبارك: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٦) (١). وأما إذا تمنى زوال النعمة عنه فهذا مذمومٌ مَعِيْبٌ، وإن أحبَّ أن يكون له مثلها من المال والرئاسة من غير زوال لذلك عنه فهذا من جنس حب المال والرئاسة ابتداءً، فهو باطلٌ وعبثٌ ولعبٌ، إلا ما يُنتَفَع به في الآخرة، والحرصُ عليه يُفْسِد الدين كما تقدم.

وقال شداد بن أوس رضي الله عنه (٢): يا بقايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني: ما الشهوة الخفية؟ قال: حبُّ الرئاسة. وقال سفيان الثوري رحمه الله: رأيناهم يزهدون في الطعام والشراب واللباس، فإذا نُوزِعَ أحدهم الرئاسة نَاطَحَ نِطَاحَ الكِبَاشِ.

فطلَّاب الرئاسة عند الذين يريدون ما أحبَّه الله ورسوله ﷺ أولى بالذم والنقص والعيب، من طلاب المال عند طُلاب الرئاسة، حيث أرادوا ما لا يدوم نفسه ولا يبقى، بل يزول ويفنى، فطلبوا الباطل الذي يفنى، وتركوا الحق الذي يبقى. وقد قال بعضهم: لو كانت الدنيا ذهباً يفنى، فكيف والدنيا خَزَفٌ يَفْنَى، والآخرة ذهبٌ يَبْقَى! ولهذا قال السحرة لما آمنوا وتبيَّن لهم الحق، وقال لهم فرعون

(١) سورة المطففين: ٢٦.

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٢٥، ١٢٣) عن شداد بن أوس مرفوعاً بنحوه.

﴿ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ السَّحْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ (١).

والمقصود هنا ذكر معنى الزوال، وقد تقدم أن لفظ «زال» يستعمل لازماً تاماً، ويُستعمل ناقصاً من أخوات كان، وهو كثير، كقوله تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٣) ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ﴾ (٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ (٥). ويقال: «لم يزل كذلك»، كقول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (٦)، ﴿ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴾ (٧) فكانه كان ثم مضى، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٨) تسمى بذلك، وذلك قوله، أي: لم يزل كذلك. رواه البخاري في صحيحه (٩) عنه. وكذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: لم يزل الله عز وجل عالماً متكلمًا غفورًا. وقال رضي الله عنه أيضًا: لم يزل متكلمًا إذا شاء. ذكره في رواية عبد الله فيما كتبه في «الرد على الجهمية والزنادقة فيما شككت فيه من متشابه القرآن وتأولته على غير تأويله» (١٠).

(١) سورة طه: ٧١ - ٧٣.

(٢) سورة التوبة: ١١٠.

(٣) سورة هود: ١١٨.

(٤) سورة المائدة: ١٣.

(٥) ٥٥٦/٨ (مع الفتح).

(٦) انظر ص ٤٨.

وهذا يقال فيه: ما زال، ولم يزل؛ والأوّل يقال فيه: زال يزول، ذاك بالواو، وهذا بالألف، لأن معنى الواو أكمل، وذاك فعل تام يُراد به لم يزل المذكور، وهنا يُراد به: لم يزل أو لا يزال على هذه الصفة وهذه الحال. فالمراد هناك دوام نفسه وبقاؤها، والمراد هنا دوام صفته المذكورة وبقاؤها. ودوام نفسه وبقاؤها من غير زوال ونقص يستلزم دوام صفات الكمال وبقائها. وأما إذا قيل: لم يزل كذلك، فقد يكون المذكور صفة نقص، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾^(١)، وقد يكون صفة كمال، وإذا كان صفة كمال فهو داخل في الأوّل.

فلهذا كان اسمه «القيوم» يتضمن أنه لا يزول، فلا ينقص بعد كماله، ويتضمن أنه لم يزل ولا يزال دائماً باقياً أزلياً أبدياً موصوفاً بصفات الكمال، من غير حدوث نقص أو تغيير بفساد واستحالة ونحو ذلك مما يعتري ما يزول من الموجودات، فإنه سبحانه وتعالى «القيوم». ولهذا كان من تمام كونه قيوماً لا يزول أنه لا تأخذه سنة ولا نوم، فإن السنة والنوم فيهما زوالٌ ينافي القيومية، لما فيهما من النقص بزوال كمال الحياة والعلم والقدرة، فإن النائم يحصل له من نقص العلم والقدرة والسمع والبصر والكلام وغير ذلك ما يظهر نقصه بالنسبة إلى الشيطان. ولهذا كان النوم أخا الموت، وسئل النبي ﷺ عن أهل الجنة: أينامون؟ فقال: «لا، النوم أخو الموت»^(٢).

(١) سورة هود: ١١٨.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٣٦٦/٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٩٠/٧) والطبراني كما في «مجمع الزوائد» (٤١٥/١٠) من حديث جابر، وله طرق مختلفة تكلم عليها الألباني في «الصحيح» (١٠٨٧).

والنوم جُعِلَ للناس في الدنيا سُبَاتًا، كما قال تعالى^(١). جعل الليل لباسًا والنوم سباتًا، ليسكن الإنسان فيه ويستريح بدنه من الحركات التي لو دامت عليه لأهلكته^(٢)، ولهذا يغتذي الإنسان بالنوم لاحتياجه إليه، ويقوم من نومه كأنه خُلِقَ جديدًا. وكان النبي ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول: «الحمد لله الذي أحيانًا بعدما أماتنا وإليه النشور»^(٣).

والرب تبارك وتعالى منزهٌ عن كلِّ نقصٍ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(٥) قالوا: لا يكرثه ولا يثقل عليه.

وإذا كان القيوم الذي لا يزول فقد دخل في ذلك أنه لا يأفل، كما قال الخليل ﷺ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾^(٦)، فإنه من المعلوم أن أفولَ الشمس والقمر والكواكب أبلغُ في النقص من زواله إذا كان الأفل غابَ واحتجبَ، ولم يبقَ له في عابده فعلٌ ولا نفعٌ، ولا يمكن عابده أن يُوجَّهَ وجهه إليه، بخلاف زوال الشمس، فإنه فيه نقصٌ لها وانخفاضٌ وانحطاطٌ عن حالِ كمالِ ارتفاعِها. والزوالُ بدءٌ حصولِ الأفياءِ المُزيلة لشعاعها، فإن الظلَّ يكون ممدودًا قبل طلوعها، كما

(١) في سورة النبا: ٩ ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

(٢) في الهامش: «لأفسدته».

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٢٥، ٧٣٩٥) عن أبي ذر، ومسلم (٢٧١١) عن البراء بن عازب.

(٤) سورة ق: ٣٨.

(٥) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٦) سورة الأنعام: ٧٦.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾^(١). فإذا طلعت انبسط شعاعها على وجه الأرض، ونسخ الظل الذي يقع عليه، فنسخ الظلال الشرقية كلها، ولا يزال ينسخ الغربية شيئاً بعد شيء حتى تستوي الشمس، فيكون قد نسخ الظلال الشرقية والغربية جميعاً، وهذا غاية نسخ الشمس الظلال. فإذا زالت انحطت وانخفضت، ففأنت الأفياء. والفيء اسم للظل الذي بعد الزوال، والظل يعم ما قبله وما بعده، لأنه يفيء الفيء ويعود، فيعود الفيء إلى ناحية المشرق، بعد أن كان قد نسخ عنها، ولا يزال الفيء يمتد ويطول كلما انخفضت الشمس إلى أن تغرب، فيعود الظل ممدوداً بأفولها، كما يكون ممدوداً قبل طلوعها، فكان أفولها غاية بطلان أثرها في ذلك الزوال، مبدأ ذلك بالأفول، كما نقصها الذي ابتداء من الزوال، وكأنه كمال زوالها. ولهذا فسّر دلوكها بهذا وبهذا في قوله عز وجل: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾^(٢)، فطائفة من السلف قالوا: دلوكها غروبها، والتحقيق أن الزوال أول دلوكها، والغروب كمال دلوكها، فمن حين الزوال إلى الغروب دالكه، كما هي زائلة بارحة، ولهذا سُميت «براح»، ويقال: دلكت برّاح. ولهذا قال تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾، فالدلوك يتناول الظهر والعصر، وغسق الليل يتناول المغرب والعشاء، وصلاة العشي^(٣) فيها مشترك عند الحاجة. وكذلك صلاة العشاء، فإن ذلك كله دلوك، وهذا كله

(١) سورة الفرقان: ٤٥ - ٤٦.

(٢) سورة الإسراء: ٧٨. وانظر: «زاد المسير» (٧٢/٥) والقرطبي (٣٠٣/١٠).

(٣) في الهامش: «صلاة الظهر والعصر».

غسق، ولا يجوز تفويت صلاة غسق الليل إلى الفجر لدلوك الغسق الليل، كما لا يجوز تفويت صلاة الفجر إلى غسق الليل^(١). قال ﷺ في الحديث الصحيح: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»^(٢). وقال أيضًا ﷺ: «من فاتته صلاة العصر فقد حبط عمله»^(٣). وهي الصلاة الوسطى، كما دلّ على ذلك الأحاديث الصحيحة^(٤)، وهي بين صلاتي ليلٍ وصلاتي نهارٍ.

فالحَيِّ القيوم سبحانه وتعالى الذي لا يزول ولا يأفل، فإن الآفل قد زال قطعاً، واسم «القيوم» تضمن أنه لا يزول، ولا ينقصُ شيءٌ من صفاتِ كماله، ولا يفنى ولا يُعدَم، بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال موصوفاً بصفاتِ الكمال. وهذا يتضمن كونه قديماً، فالقيوم يتضمن معنى القديم، وزيادات صفات الكمال دوامها الذي لا يدلُّ عليه لفظ القديم. ويتضمن أيضاً كونه موجوداً بنفسه، وهو معنى كونه واجب الوجود، فإن الموجودَ بغيره كان معدوماً ثم وُجدَ، وكل مفعولٍ فهو مُحدثٌ، وتقديرُ قديمٍ أزلِّي مفعولٍ كما يقوله بعض المتفلسفة باطلٌ في صريح العقل، وهو خلاف ما عليه جماهير العقلاء المتقدمين والمتأخرين.

فالقيوم الذي لم يزل ولا يزال لا يكون إلا موجوداً بنفسه،

-
- (١) في الأصل: «صلاة غسق الليل إلى الفجر»، وهو تكرار لما سبق.
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥) ومسلم (٦٢٦) عن ابن عمر، بلفظ «الذي تفوته...».
(٣) أخرجه البخاري (٥٩٤) من حديث بريدة، بلفظ «من ترك صلاة...».
(٤) منها حديث علي عند البخاري (٢٩٣١) ومسلم (٦٢٧)؛ وحديث ابن مسعود عند مسلم (٦٢٨)؛ وحديث عائشة عند مسلم (٦٢٩)؛ وحديث البراء بن عازب عند مسلم (٦٣٠).

والموجود بنفسه لا يكون إلا قديماً واجب الوجود، فإن وجوده [لو] لم يكن واجباً لكان ممكناً، يمكن وجوده ويُمكن عدمه، وما أمكن وجوده وعدمه لم يكن إلا مُحدثاً كائناً بعد أن لم يكن. فليس هو القيوم الذي لا يزول، بل لم يزل ولا يزال.

ومن الناس من يُطلق هنا أنه لم يزل ولا يزال ولا يكون بغيره^(١)، وهذا إن كان لغةً فكونه موجوداً بنفسه من معاني كونه قيوماً، [و] إذا ما وُجد بغيره ليس هو قيوماً، لحاجته إلى من يُوجدُه ويُقيمه، بل ليس له من القيومية بنفسه، إذ هو دائماً محتاجٌ فقيرٌ إلى القيوم، وما كان موجوداً بنفسه يمتنع أن يكون معدوماً تارةً وموجوداً أخرى، [وما] كان ممكناً مُحدثاً لم يكن وجوده بنفسه، فإن ما وجوده بنفسه وجوده ملازمٌ له لا يكون معدوماً قطُّ، بل من تُصوِّرتُ نفسه تُصوِّرُ أنه موجودٌ، والمعدومُ يُتصوِّرُ نفسه معدومةً وموجودةً أخرى، فليس الوجودُ ملازماً لها.

فقد تبينَ أن الوجود الواجب القديم وما يستلزم ذلك من صفات الكمال ودوام ذلك وبقائه، كلُّ ذلك يدخل في اسمه «القيوم»، واقتترانه بالحيّ يستلزم سائر صفات الكمال، فجميع صفات الكمال يدلُّ عليها اسم «الحيّ القيوم»، ويدلُّ أيضاً على بقائها ودوامها وانتفاء النقص والعدم عنها أولاً. ولهذا كان قوله سبحانه وتعالى ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أعظم آية في كتاب الله عز وجل، كما ثبت ذلك في الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ. والله سبحانه وتعالى أعلم. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

(١) في الأصل: «لا يك خبره»، وهو تحريف.

(٢) مسلم (٨١٠) عن أبي بن كعب.

oboeikandi.com

قاعدة جليلة
في إثبات علوّ الله تعالى على جميع خلقه

oboeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية رضي الله عنه:

قاعدة جليلة بمقتضى النقل الصريح في إثبات علو الله تعالى الواجب له على جميع خلقه فوق عرشه، كما ثبت ذلك في الكتاب والسنة والإجماع والعقل الصريح الصحيح والفطرة الإنسانية الصحيحة الباقية على أصلها.

وهي أن يقال: كان الله ولا شيء معه، ثم خلق العالم، فلا يخلو: إما أن يكون خَلَقَهُ في نفسه واتصل به، وهذا محالٌ، لتعالي الله عز وجل عن مماسّة الأقدار والنجاسات والشياطين والاتصال بها. وإما أن يكون خَلَقَهُ خارجًا عنه ثم دخل فيه، وهذا محالٌ أيضًا، لتعالي الله عز وجل عن الحلول في المخلوقات. وهاتان صورتان مما لا نزاعَ فيها بين المسلمين.

وإما أن يكون خَلَقَهُ خارجًا عن نفسه ولم يحلّ فيه، فهذا هو الحق الذي لا يجوز غيره، ولا يقبل الله منّا ما يخالفه، بل حرّم علينا ما يناقضه.

وهذه الحجة هي من بعض حجج الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، التي احتجّ بها على الجهمية في زمن المحنة. ولهذا قال عبدالله بن المبارك فيما صحّ عنه أنه قيل له: بماذا نعرف ربّنا؟ قال:

بأنه فوق سمواته على عرشه بائنٌ من خلقه^(١).

وعلى ذلك انقضى إجماع الصحابة والتابعين وتابعيهم وجميع الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدقٍ، وما خالفهم في ذلك من يُحتجّ بقوله.

ومن ادّعى أن العقل يعارضُ السمعَ ويخالفه فدعواه باطلة، لأن العقل الصريح لا يتصور أن يخالف النقل الصحيح. وإنما المخالفون للكتاب والسنة والإجماع، والمدّعون حصول القواطع العقلية إنما معهم شبه المعقولات لا حقائقها، ومن أراد تجربة ذلك وتحقيقه فعليه بالبراهين القاهرة والدلائل القاطعة التي هي مقررة مسطورة في غير هذا الموضوع^(٢). والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في «الرد على الجهمية» (ص ٥٠) و«الرد على بشر المريسي» (ص ٢٤، ١٠٣) وعبدالله بن أحمد في «السنة» (ص ٧، ٢٥، ٣٥، ٧٢) من طرقٍ عنه.

(٢) انظر المجلد الخامس من «مجموع الفتاوى» الذي يحتوي على رسائل ومساءل للمؤلف في هذا الموضوع.

فتوى فيمن يدعي أن ثمَّ غوثاً وأقطاباً وأبدالاً

oboeikandi.com

سئل شيخ الإسلام مفتي الأنام حَبْرُ الأُمَّة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأرضاه، فيمن يدعي أن ثمَّ غوثًا وأقطابًا وأبدالًا وأولياء، وأنَّ بهم يُستسقى الغيثُ وتَنزِلُ الرحمةُ ويُكشَفُ العذاب، وإذا غَضِبَ اللهُ على أحدٍ من أهل الأرضِ وأراد أن يُنزلَ غَضَبَهُ، نَظَرَ إلى قلوبِ هؤلاء، فإنَّ وجدَهم راضينَ بذلك أنزلَ عذابه، وإلا رَفَعَهُ، وكذلك الرحمةُ والنَّصْرُ والرِّزْقُ، وأنَّ الغوثَ بمكَّةَ مُقيم. ومن يدعي أن هؤلاء المولَّهينَ والبهايل الذين لا يُصلُّون، ولا يتوقَّونَ نجاسةً ولا غيرها.

فأجاب رضي الله عنه قائلاً:

الحمد لله رب العالمين. الذي دلَّ عليه الكتابُ والسنةُ، وعليه سلفُ الأُمَّة وخلفُها الصالحون المتبعون للسلف -: أن الله تعالى أولياء، كما له أعداء، وأولياء الله هم المنعوتون في قوله تعالى: ﴿الْأَوْلِيَاءُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ لِكَلِمَاتِهِ أَنْ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (١).

وفي صحيح البخاري (٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمِحَارِبَةِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ

(١) سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.

(٢) برقم (٦٥٠٢).

الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، في سَمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي. لئن سألتني لأُعطينه، ولئن استعاذ بي لأُعيدته. وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض عبي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فبين النبي ﷺ لما ذكر أولياء الله أنه ما يقرب العباد إليه بمثل أداء الفرائض، ثم ذكر أنه لا يزال العبد يتقرب إليه بالنوافل بعد الفرائض، حتى يحبه، فيصير العبد يسمع بالله، ويبصر بالله، ويمشي بالله، فيصير سمعه وبصره ومشيه وبطشه بيده لرضا الله ومحبه، فإنه لما في قلبه من محبة الله وموالاته وعبادته وطاعته، يصير قلبه منيباً إلى الله، ويصير ممن هداه الله واجتباها، فيجتبي قلبه إليه، ويقذف من نوره في قلبه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ءُوجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾^(٣)

قال محمد بن كعب: مثل نُوره في قلب المؤمن.

وقال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيْمَٰنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ ءَمَن نَّشَآءُ مِن عِبَادِنَا﴾^(٤). فإذا جعل الله في قلبه من نوره صار بذلك النور يسمع ويبصر ويبطش ويمشي.

وأولياء الله نوعان: مقرَّبون سابقون، ومقتصدون أبرار أصحاب

(١) سورة الأنعام: ١٢٢.

(٢) سورة الحديد: ٢٨.

(٣) سورة النور: ٣٥.

(٤) سورة الشورى: ٥٢.

يمين، كما ذكر الله هذين الصنفين في سورة الواقعة في أولها وفي آخرها، فذكر تعالى أن الناس ثلاثة أصناف وقت القيامة الكبرى ووقت الموت، فقال تعالى: ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١). وكذلك قال في آخر السورة: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنَزَلُ مِنَ جَحِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾ (٢).

وكذلك ذكر الأصناف الثلاثة في سورة هل أتى على الإنسان، وفي سورة المطففين. وقد ذكر في سورة فاطر تقسيم أمة محمد ﷺ إلى ثلاثة أصناف في قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (٣)، فالظالم لنفسه: هو المفرط بترك المأمور أو فعل المحذور، والمقتصد (٤): المؤدّي للفرائض، المجتنب للمحارم، والسابق بالخيرات: المؤدّي للواجب والمستحب، والتارك للمحرّم والمكروه.

وأولياء الله المتقون لهم كرامات يُكرّمهم الله بها، فخواص أولياء الله المتبعون لمحمد ﷺ يكون كراماتهم إمّا لحجّة في الدين، أو لحاجة للمسلمين، كما كانت معجزات الرسول ﷺ كذلك، فهم يتقرّبون إلى الله بما يُكرّمهم به من الخوارق، ويعبدون الله بها، ويزدادون بها قربًا إلى الله، لا يطلبون بها علوًا في الأرض ولا فسادًا.

(١) سورة الواقعة: ٧ - ١٠.

(٢) الآيات ٨٨ - ٩٤.

(٣) سورة فاطر: ٣٢.

(٤) في الأصل: «المقتصدون».

وقد كان كثير من السلف يُسمِّي من يُسمِّي من هؤلاء الأبدال، وقد قيل في معنى الأبدال^(١): إنهم الذين بدّلوا السيئات بالحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾^(٢). ولا ريب أن الصالحين من عباد الله لهم سبب في الرزق والنصر، كما قال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «يا سعد، وهل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم، بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»^(٣). فهذا ونحوه حقٌّ جاء به الكتاب والسنة، ولا وصول للخلق إلى رضوان الله وكرامته إلا بالإيمان برسوله وطاعتهم، فهم الوسائط والسفراء بين الله وبين خلقه، والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أفضل الخلق، فمن ظنَّ أنه يصل إلى رضوان الله وكرامته بدون اتباع محمد ﷺ، أو لأحدٍ من الخلق طريقاً إلى رضوان الله وكرامته غير اتباع محمد ﷺ، فهو كافر مُلحد. ومن ادّعى أن أحداً من أولياء الله الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ يصل إلى رضوان الله وكرامته بغير كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ فهو ملحد ضالُّ مُفترٍ، يُستتاب فإن تاب وإلا قُتِل كافرًا. بل محمد ﷺ رسول الله إلى جميع الخلق الثقلين إنسهم وجنهم، وهو رسول الله إلى جميع الإنس: أسودهم وأحمرهم، وعربهم وعجمهم.

فأولياء الله المتقون هم العاملون العاملون بما بعث الله به محمدًا ﷺ، ولا يكون لله وليٌّ إلا من يتبع محمدًا، ومن لم يتبع محمدًا فهو

(١) انظر لمعنى الأبدال: «فتوى في الغوث» للمؤلف.

(٢) سورة الفرقان: ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩٦) والنسائي (٤٥/٦) عن مصعب بن سعد، ورواه أحمد

(١٧٣/١) من طريق مكحول عن سعد نحوه.

عدو الله، لا ولي له، وإن كان مع ذلك له أحوال شيطانية، يحصل له بها مكاشفة وتصرف يُعين بذلك أعداء محمد ويخفّرهم، فهم من أعداء الله الملائع، لا من أوليائه المتقين. وهو من جنس السحرة والكهّان الذين كانت الشياطين تُخبرهم ببعض المغيبات، وتساعدهم على بعض مطالبهم، وهؤلاء من أعداء الله المجرمين، لا من أوليائه المتقين، بل هم كفّار يجب قتلهم، بل يقتلون بلا استتابة عند كثير من علماء المسلمين.

وأما أن يكون في العالم أحد من البشر لا يُنزّل الله رزقاً أو نصراً أو هدى إلاّ بواسطته، فهذا من أقوال المفترين الملحدين، وهو من جنس قول النصارى، إمّا في المسيح، وإمّا في الباب. بل الناس يدعون الله، فيجيب دعاءهم، ويسمع كلامهم. والمشركون كانوا يدعون الله إذا اضطرّوا، فيجيب دعاءهم، فكيف بالمؤمنين!

وليس أحد من الخلق يكون هو الذي يرفع دعاء العباد كلّهم إلى الله سبحانه وتعالى، ولا لعباد الله الصالحين وأوليائه المتقين عددٌ مُعيّن، لا أربعة ولا سبعة ولا اثنا عشر ولا أربعون ولا ثلاث مئة وثلاثة عشر، بل يكثرون تارةً ويقَلُّون أخرى. وقد كان حين بعث الله محمداً ﷺ في أول الأمر كانوا من أقلّ الناس، ثمّ إنه بعد هذا انتشر الإيمان.

وقد أغرق الله أهل الأرض في زمن نوح عليه السلام إلاّ من آمن معه، وما آمن معه إلاّ قليل.

وفي الحديث الصحيح^(١) أن الخليل عليه السلام قال لسارة لما طلبها الكافر، وكان يأخذ امرأة الرجل إذا أعجبته، فقال الخليل لها: إذا سألك

(١) البخاري (٢٢١٧، ٣٣٥٨) عن أبي هريرة.

فقولِي إِنَّكَ أُخْتِي، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرِكَ.

وقول القائل: إن الله إذا غضبَ على أحدٍ من أهل الأرض وأراد أن يُنزل به العذابَ، نظرَ إلى قلوب هؤلاء المذكورين، فإن وجدَهم راضين بإنزالِ العذابِ على الذي قد استحقَّه أنزلَه، وإن لم يجدَهم راضين بذلك رفعَه - كذبٌ مفترى، بل قد أنزلَ الله العذابَ على قومِ لوطٍ مع مجادلةِ إبراهيم الخليل عنهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رِيكٌ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ عَذَابِ غَيْرِمْ دُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ (١).

وقال تعالى لمحمد ﷺ لَمَّا استغفر للمنافقين: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ (٢).

ومحمد وإبراهيم أفضلا الخلق، هذا خليل الله، وهذا خليل الله. والخليل إبراهيم استغفر لأبيه. ثم لما مات أبو طالب قال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنهَ عنك» (٣)، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ (٤). فقال بعض المسلمين: إنَّ إبراهيم قد استغفر لأبيه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾ (٥).

(١) سورة هود: ٧٤ - ٧٥.

(٢) سورة المنافقين: ٦.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٧٥) ومواضع أخرى) ومسلم (٢٤) عن سعيد بن المسيب عن أبيه.

(٤) سورة التوبة: ١١٣.

(٥) سورة التوبة: ١١٤.

وقد ثبت^(١) أنه يوم القيامة يُرَاجِعُ الناسَ الشفاعة، فيأتون إلى آدم ليشفع لهم، فيُرَدُّهم إلى نوح، ويرُدُّهم نوح إلى إبراهيم، ويرُدُّهم إبراهيم إلى موسى، ويرُدُّهم موسى إلى عيسى، ويرُدُّهم عيسى إلى محمد ﷺ وعلى سائر النبيين وآلِ كلِّ وسائر الصالحين، فإذا أتوا محمداً أفضلَ الشفعاء وأعظمَ الخلقِ جاهاً عند الله قال: «فَاتِي رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتَهُ خَرَرْتُ لَهُ سَاجِداً، وَأَحْمَدُ رَبِّي بِمُحَمَّدٍ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ لَا أَحْسَنُهَا الْآنَ، فَيَقَالُ: أَيُّ مُحَمَّدٍ، أَرَفَعُ رَأْسَكَ، وَقُلْ تُسْمَعُ، وَسَلْ تُعْطَى، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ». فلا يَشْفَعُ حَتَّى يَأْذِنَ اللَّهُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾^(٣).

فإذا كان أفضلُ الخلق لا يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فكيف يُقال: إنَّ الله لا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا إِذَا رَضِيَ هُوَ لَا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ؟ ومعلومٌ أنَّ العبدَ عليه أن يتَّبَعَ رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فيفعل ما أمر، ويرضى بما قدَّر. وأمَّا الربُّ عزَّ وجلَّ إذا أراد أن يهلك أعداءه هل يُشاوِرُ أَحَدًا، أو يتوقَّفُ فِعْلَهُ على رِضَا أَحَدٍ من عباده؟ بل هؤلاء العباد إن كانوا راضين بما أمرهم أن يرضوا به، وإلا وَجِبَتِ التَّوْبَةُ عَلَيْهِمْ. ألا ترى أنَّ الله تعالى لَمَّا أَغْرَقَ أَهْلَ الْأَرْضِ، وَأَغْرَقَ فِيهِمْ ابْنَ نُوحٍ الَّذِي قَالَ لَهُ نُوحٌ: ﴿يَبْنِيْ اٰرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِيْنَ﴾^(٤) قَالَ سَعَاوِيْ اِلٰى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ اٰمْرِ اللّٰهِ اِلَّا مَنْ

(١) في حديث الشفاعة الطويل، الذي أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) عن أبي هريرة.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٣) سورة سبأ: ٢٣.

رَّحِمًا ﴿١﴾ . وبعد هذا دعا نوح ربه فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي مِّنْ أَهْلِ وِلَانٍ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٢﴾ ، قال الله: ﴿ يٰ نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ ﴿٣﴾ . فإذا كان الله لَمَّا استحقَّ ابنُ نوحِ الهلاكِ أهلكه، وسألَ نوحُ فيه فعاتبَ اللهُ نوحًا على سُؤاله، وهو أوَّلُ رسولٍ بعثه اللهُ إلى أهلِ الأرض، فكيف يُقال: إنَّه لا يُعذَّبُ أحدًا إلاَّ برِضا طائفةٍ من عباده؟ فهل يكون أحدٌ أفضلَ من أولي العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ومحمد؟

وقد ﴿ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِّمِينًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَهْلِكُنَّاهُمْ بِمَا فَعَلُوا السُّفْهَاءَ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أي محتتك واختبارك ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً . . . ﴾ ﴿٤﴾ الآية .

وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُم مِّن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ﴿٥﴾ .

فهذا حالُ الرسل مع الله يَرُدُّ على من يَغْلُو فيهم، فكيف يُقال: إنَّ له عبادًا لا يُعذَّبُ أحدًا إلاَّ برِضاهم؟ بل يُقال: هؤلاء العبادُ لو أرادَ أن يُهْلِكَهم فمن يَمْلِكُ دَفْعَ بأسِ الله عنهم؟ وهؤلاء العبادُ عليهم

(١) سورة هود: ٤٢ - ٤٣ .

(٢) الآية: ٤٥ .

(٣) الآية: ٤٦ .

(٤) سورة الأعراف: ١٥٥ - ١٥٦ .

(٥) سورة المائدة: ١٧ .

أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه، ففي صحيح البخاري^(١) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «والله إني لأستغفر الله وأتوبُ إليه في اليومِ أكثر من سبعين مرةً».

وفي صحيح مسلم^(٢) عن الأغرّ المزني عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مئة مرة».

وقال ﷺ^(٣): «إِنَّهُ لِيُعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».

وثبت عنه في الصحيحين^(٤) أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت».

وهذا وأمثاله في دعاء الأنبياء وتضرعهم واستغفارهم وتوبتهم كثيرٌ في الكتاب والسنة، وهم يسألون الله رحمة لهم ولغيرهم، ويستعيذون بالله من عذابه أن ينزل بهم أو بمن يطلبون دفعه عنهم، فكيف يكون تعذيب رب العالمين لمن شاء تعذيبه لا يكون إلا برضا بعض الناس؟.

لكن قد ثبت في الصحيحين^(٥) عن النبي ﷺ أنه مرَّ عليه بجنزة، فأثنوا عليها خيراً، فقال: «وَجَبَتْ»، ومرَّ عليه بجنزة، فأثنوا عليها

(١) برقم (٦٣٠٧).

(٢) برقم (٢٧٠٢/٤٢).

(٣) في الحديث السابق عند مسلم (٤١/٢٧٠٢) عن الأغرّ المزني.

(٤) البخاري (٦٣٩٩) ومسلم (٢٧١٩) عن أبي موسى الأشعري.

(٥) البخاري (٢٦٤٢) ومسلم (٩٤٩) عن أنس بن مالك.

شرًّا، فقال: «وَجَبَتْ»، قال: «هذه الجنازة أنثتم عليها خيرًا فقلت: وجبت لها الجنة، وهذه الجنازة أنثتم عليها شرًّا فقلت: وجبت لها النار، أنتم شهداء الله في الأرض».

وفي المسند^(١) عن النبي ﷺ أنه قال: «يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، قيل: بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «بِالْثَّنَاءِ الْحَسَنِ وَالْثَّنَاءِ السَّيِّئِ».

فأولياء الله المتقون هم شهداء الله في الأرض، بما جعله الله من النور في قلوبهم، فمن أثنوا عليه خيرًا كان من أهل الخير، ومن أثنوا عليه شرًّا كان من أهل الشرِّ. وأيضًا فقد يدعون الله لمن يحبونه، فينفعه الله بدعائهم، ويدعون على غيره، فيتضررُ بدعائهم.

والملائكة يُؤيِّد الله بهم عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٢)، وقال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣). وقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِم رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾^(٤). وقال: ﴿...﴾^(٥).

وأما حزبُ الشيطان فيعاونهم الشياطينُ شياطينُ الإنس والجنِّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ

(١) ٤١٦/٣ و ٤٦٦/٦ عن أبي زهير الثقفي. وأخرجه أيضًا ابن ماجه (٤٢٢١).

(٢) سورة التوبة: ٢٦.

(٣) سورة الأنفال: ١٢.

(٤) سورة الأحزاب: ٩.

(٥) بياض في الأصل. ولعلَّ المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ﴿١﴾ (٢).

فصل

ولفظ الغوث والقطب في حق البشر لم يُنطق به كتابٌ ولا سنة،
ولا تكلم به أحدٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان في هذا المعنى،
بل غياثُ المستغيثين على الإطلاق هو الله تعالى، كما قال: ﴿إِذْ
تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (٣).

ولم يجعل الله أحدًا من الخلق غوثًا يُغيث الخلق في كلِّ ما يستغيثونه
فيه، لا ملكٌ ولا نبيٌّ ولا غيرهما. بل في الصحيحين (٤) أن النبي ﷺ
قال: «لا أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ،
فيقول: يا رسولَ اللهِ أَغْنِي أَغْنِي، فأقول: لا أملك لك من الله شيئًا.
يا عباس عمٌّ قد أبلغتكَ».

وهذا كقوله (٥): «يا فاطمة بنت محمد، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ
شيئًا؛ يا عباسُ عمَّ رسولِ اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شيئًا؛ يا صفيةُ
عمةَ رسولِ اللهِ، لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شيئًا، سلوني ما سئتم». وهذا
من تأويل قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٦).

(١) سورة الأنفال: ٤٨.

(٢) بياض في الأصل.

(٣) سورة الأنفال: ٩.

(٤) البخاري (٣٠٧٣) ومسلم (١٨٣١) عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٥) وأحمد (١٨٧/٦) والترمذي (٣١٨٤) والنسائي (٢٥٠/٦)

عن عائشة.

(٦) سورة الشعراء: ٢١٤.

وقد يكون بعض الناس سبباً لشرٍّ يندفع في بعض الأمور، فيقال: فلانٌ يَسْتغِيثُ بفلانٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَعِثُّهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾^(١). هذا كلفظ النصر والرزق والهدى، فالله هو الهادي النصير الرازق، وليس هذا النعتُ على الإطلاق لأحدٍ إلا الله وحده، لا لملكٍ مقربٍ ولا نبيٍّ مرسلٍ. لكن من الخلق من يكون سبباً في رزقٍ أو هدىٍ أو نصرٍ يحصل لغيره، وهو في ذلك سببٌ، لا يستقل بالحكم، بل لا بدَّ معه من أسبابٍ أُخر، ولا بدَّ من موانعٍ يدفعها الله، وإلا لم يحصل المطلوب. وأما أن يكون بشرٌ أو ملكٌ يُغيثُ الخلق في كلِّ ما يستغيثون فيه بالله، فمن ادَّعى هذا فهو أكفرُ من النصارى من بعض الوجوه، فإنَّ أولئك قالوا: إنَّ الله هو الذي يُغيثُ، لكن زعموا أنَّه اتَّحدَ أو حلَّ في المسيح، وهذا جعلَ بعضَ المخلوقاتِ يفعل ما يفعله الخالق. ومن زعم أنَّ ثمَّ غوثاً يكون على يديه ما ينزله الله من هدىٍ ونصرٍ ورزقٍ، فقد افترى على الله، ليس ما ينزله الله في ذلك على عباده لشخص واحد.

ومن ضلالٍ بعضِ هؤلاء أنهم يجعلون الغوثَ مقيماً بمكةَ دائماً.

فيقال لهم: من هذا الغوثُ الذي كان غياثَ الخلقِ على عهد رسولِ الله ﷺ وخلفائه الراشدين، ولم يكن أحدٌ منهم مقيماً بمكةَ؟ ومن كان بمكةَ من هو أفضلُ من الرسولِ وخلفائه؟ وهؤلاء من جنس قولِ الإفرنج في «الباب»، فإنهم يدَّعون فيه نحواً من ذلك.

وأما لفظ «القطب»، فما دارَ عليه أمرٌ من الأمور قيل: إنه قُطْبُهُ، كقطبِ الرِّحَا وقطبِ الفلك. فمن كانت له مرتبةٌ من إمارةٍ أو علمٍ أو

(١) سورة القصص: ١٥.

دين فهو قُطْبُ تلك الأمور التي دارت عليه، فالمَلِكُ قُطْبُ المُلْكِ، والوالي قُطْبُ الولاية، ونحو ذلك. وقُطْبُ الدين الذي يُؤخذ عنه ولا يُرَاحمه أحدٌ هو محمد ﷺ، ومن الصالحين مَنْ يُجري الله على يَدِهِ من الخير ما يكون قُطْبَ أُمَّة.

وأما أن يكون للوجودِ قُطْبٌ يدورُ عليه أمرُهُ، به يَنزِلُ المَطَرُ مطلقًا، وبه يَحْصُلُ الهُدَى مطلقًا، وبه يَحْصُلُ النَّصْرُ مطلقًا، فهذا لا يكون لمخلوقٍ البتَّة، ولكن قد يكون من المخلوقين من يَحْصُلُ به ما يَحْصُلُ من نَصْرٍ ورزقٍ وهُدَى، كما قال النبي ﷺ: «وَهَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بضعفائِكُمْ، بدعائِهِمْ وإِخْلاصِهِمْ وصلاتِهِمْ؟»^(١).

ومن كان تاركًا للصلاة مع قدرته على الصلاة فإنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتِلَ، وليس في هؤلاء من هو وليُّ الله، بل فيهم من معه شياطين تُوحِي إليه بأشياء، وتُعاوَنه بأشياء، فيُخبرون ببعض الأمور الغائبة كما كانت الكُفَّان تُخبر، ويتصرفون في بعض الأمور بشياطينهم من جنس تصرف السَّحرة، فتارةً يقتلون الرجل، وتارةً يُمرضونه، إلى أمور أخرى من جنس الحوادث، فيظنُّ من لا يَعْرِفُ حقيقة أمرِهِم أنهم أولياء الله وأن هذه كرامات، وقد يكون في هؤلاء من هو كافر بالله. ومن هؤلاء من يُصَلِّي، ويكون له ذنوب كبائر يكون بها فاسقًا، وله شياطين تُعِينه. وطائفة ثالثة خيرٌ من هؤلاء، وهؤلاء فيهم خير ودين، وفيهم قلةٌ معرفةٌ بأمر الله ونهيه، يَقْتَرِنُ بِهِمْ جُنٌّ من جنسِهِمْ، فتارةً يطيرون بهم في الهواء، فيذهبون بهم إلى مكَّة، ويقفون بعرفات من غير أن يَحْجُّوا الحج الذي أمر الله به ورسوله، فلا يُحْرِمُونَ، ولا

(١) سبق ذكر الحديث قريبًا.

يُلبثون، ولا يجتنبون محظورات الإحرام، ولا يُقيمون بمزدلفة، ولا يطوفون بالبيت، بل يُحملون في الهواء فيقفون بعرفات، ثمَّ يُحملون فيُصبحون في بلدهم. وهذا من تلاعب الشياطين بهم.

ومن ظنَّ هذا من كرامات أولياء الله فهو جاهل، فإنَّ هذا عملٌ محرَّم، ليس مما أمر الله به ورسوله، فلا يحلُّ لأحدٍ أن يذهب إلى عرفات، فيقف مع الناس بثيابه، من غير أن يحجَّ الحج الذي أمر الله به ورسوله. بل قد روي أن عمر بن الخطاب رأى بعرفات ناسًا عليهم الثياب، فأراد أن يعاقبهم عقوبةً بليغةً.

والقلم لم يُرفع إلا عن المجنون، وليس كلُّ من رُفِعَ عنه القلم يكون وليًّا لله، بل من المجانين من يكون يهوديًا ونصرانيًا ومشرکًا، فلا يكون وليًّا لله وإن رُفِعَ عنه القلم، بخلاف من كان مؤمنًا بالله وبرسوله وله صلاحٌ ودينٌ، فأصابه خلطٌ أفسد مزاجه، فهذا إذا غاب عقله رُفِعَ عنه القلم، وإذا صحَّ^(١) تكلم بكلام أهل الإيمان، و[له] قلب يحب الله ورسوله ويحب ما أحبه الله ورسوله.

وأما من اقترنت به الشياطين، وغيبت عقله في بعض الأحوال، فهذا قد يتكلم الشياطين على لسانه بالإثم والعدوان، ويُبغض إليه ما يحبه الله من الطهارة والصلاة والقرآن، ويحبُّ إليه ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان. ومن علامات هؤلاء أنه لا يحصل لهم الخوارق عند أفعال الخير التي يحبها الله ورسوله، كالصلاة والقراءة والذكر والدعاء وقيام الليل، بل إنما يحصل إذا أشركوا بالله، فاستغاثوا ببعض المخلوقين، أو عاشروا النسوان والمُردان معاشرَةً قبيحةً، أو

(١) في الأصل: «صفا» تحريف.

حَضَرُوا سَمَاعَ الْمُكَاةِ وَالتَّصَدِيَةِ، وَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْمُحَرَّمَاتُ كَانَتْ أَحْوَالُهُمْ أَقْوَى. فَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ مِنْ حِزْبِ الشَّيَاطِينِ وَأَوْلِيَائِهِ، لَا مِنْ حِزْبِ الرَّحْمَنِ وَأَوْلِيَائِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَأَنَّهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ﴾ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩) (١).

وأما الذين يسمونهم (٢) الناس رجال الغيب، كالذين يظهرون بالأماكن التي ليس فيها جمعة ولا جماعة ولا آثار الرسالة، بل يظهرون في الأماكن التي ينفرد بها بعضُ الناس عن الجمعة والجماعة، إمَّا جبلٌ من الجبال، كجبل لبنان وجبل الفتح وجبل الأحبس وغير ذلك من الجبال، وإمَّا مَغَارَةٌ من المغارات، كمغارة الدم، وإمَّا غيرها، وإمَّا غير ذلك من المواضع التي لم يأمر الله ورسوله بقصدها للعبادة، وإنما يقصدها الجهال. فهؤلاء هم من الجنِّ والشياطين، وقد سمَّاهم الله رجالاً، كما قال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (٣).

والكلام على هؤلاء وتفصيل أحوالهم وما عرفناه من هذه الأمور يَطُولُ (٤)، وهذا مقدار ما وَسِعَتْهُ هذه الورقة.

تمت هذه الأوراق [من] الجواب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(١) سورة الزخرف: ٣٦ - ٣٩.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) سورة الجن: ٦.

(٤) انظر «فتوى في الغوث» للمؤلف، ففيها تفصيل ما أجمله هنا.